بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم النبيين وإمام المرسلين. أما بعد:

فإنني كنت قد قرأت ما كتبه بعض المفسرين عن داود وسليمان وأيوب عليهم السلام فى تفسير سورة (ص) من الأقوال الباطلة؛ حيث أسندوا إلى داود عليه السلام قصة باطلة فى أخذه امرأة أوريا، وأن أيوب عليه السلام قد ألقى فى مزبلة. فسارعت إلى كتابة تفسير لسورة (ص) عام ١٣٦٩هـ، وكتب مقدمته الشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر عضو جماعة كبار العلماء وشيخ كلية اللغة العربية آنذاك حيث قال:

«اطَّلعت على رسالة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد فى تفسير سورة (ص) فوجدتها وافيةً بالغرض، تمتاز بسهولة العبارة وحسن الترتيب، ووضوح المقصود، مع تحرِّى الصواب والبُعد عن الخرافات والأباطيل التى حاكها المُبطلون حول سير بعض الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

نفع الله بهذه الرسالة وأجزل المثوبة للمؤلف.

فى ١٣٦٩هـ - ١٠ من يونية سنة ١٩٥٠م

شيخ كلية اللغة العربية

عبد الجليل عيسى

هذا وقد كان الشيخ عبد الجليل عيسى أحد المشايخ الذين تأثر بهم الشيخ عبد الرازق عفيفي رحمه الله فى المنهج السلفى؛ حيث كان شيخًا لمعهد الإسكندرية، وكان الشيخ عبد الرازق عفيفى مدرسًا فيه.

وقد طبعت هذه الرسالة فى مطبعة السنة المحمدية التى كان يديرها الشيخ محمد حامد الفقى رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية رحمه الله.

وكنت لما بدأت الكتابة فى تفسير هذه السورة ذكرت أن الحروف المفرقة فى أوائل السور من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، وكنت اتبعت فى ذلك الإمام ابن كثير رحمه الله حيث صدَّر بهذا الكلام فى تفسيره ﴿الم﴾ من سورة البقرة حيث قال: «بسم الله الرحمن الرحيم (الم) قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور؛ فمنهم من قال: هى مما استأثر الله بعلمه فردُّوا علمها إلى الله ولم يفسروها. حكاه القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم أجمعين. وقاله عامر الشعبى وسفيان الثورى والربيع بن خُثَيْم واختاره أبو حاتم بن حبان. انتهى».

وقد اتضح لى بعد ذلك بزمن قليل أن جعل هذه الحروف من المتشابه غير سديد، وأن تعريف المتشابه بأنه ما استأثر الله بعلمه غير سديد كذلك، وأن الصحيح فى هذه الحروف المفرقة أنها للتحدِّى والإعجاز، وأن الصحيح فى تعريف المتشابه أنه: اللفظ المحتمل لمعنيين أو أكثر أحدُها صحيح يوافق المحكَم، والثانى فاسد يناقض المحكَم؛ فأما الذين فى قلوبهم مرض فيحملونه على المعنى الفاسد كما حمل نصارى نجران قوله عز وجل ﴿وروح مِنه﴾ على أن ﴿مِن﴾ للتبعيض وأن عيسى بعضُ الله. وأما الراسخون فى العلم فيحملون متشابهه على مُحْكَمِه.

ولما عُينت مدرسًا فى كليتى الشريعة واللغة العربية فى مطلع العام الدراسى ١٣٧٩هـ وأُسند لى تدريس مادة التفسير لطلاب الشهادة العالية بكلية اللغة العربية، وكان منهج التفسير لتلك السنة هو تفسير سور (ص) و(ق) و(النجم) و(اقتربت الساعة) على أن أهتم فى هذا التفسير بمعانى« المفردات والتراكيب النحوية والبلاغية»، فاغتنمتُ هذه الفرصة لتحرير القول فى الحروف المفرقة فى أوائل السور، كما حرصتُ كل الحرص على بيان حقيقة المتشابه، واغتنمت كل سانحة لإثبات ذلك، كما أوضحته فى كتابى (إمتاع العقول بروضة الأصول) عند الكلام على المحكم والمتشابه. وكذلك فى صدر تفسير

(آل عمـران) فى كـتابى (تهـذيب التفـسيـر) وأطلت الكلام فى ذلك لإبطال التعريف القائل بأن المتشابه مـا استأثر الله بعلمه، وأنه قول رديْ مردود. وقد نشرت مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة تفسيرى لهذه السور الأربع تحت عنوان (أضواء على التفسير).

وإني أذكر من عهد بعيد يزيد على أربعين سنة أني وقفت على كتيب بعنوان: الحب. يقول فيه كاتبه: أليس الحب هو الذي حرك قلب النبي محمد ﷺ إلى زينب بنت جحش حينما رأى ساقها الدقيق تحت ثوبها الرقيق كما يرويه بعض المستشرقين. فلما قرأتها سارعت إلى تفسير ابن جرير، وإذا به مع الأسف يذكر نحو ما في هذه القصة الباطلة المختلقة المكذوبة على رسول الله ﷺ دون أن يعلق عليها بشيء، فيقول: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: كان النبي ﷺ قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته، فخرج رسول الله ﷺ يومًا يريده، وعلى الباب سترة من شعر، فرفعت الريح الستر. فانكشف، وهي في حجرتها حاسرة، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ فلما وقع ذلك كرهت إلى الآخر فجاء فقال يا رسول الله! إني أريد فراق صاحبتي قال: مالك أرابك منها شيء؟ قال: لا والله ما رابني منها شيء يا رسول الله، ولا رأيت إلا خيرًا. فقال له رسول الله ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، فذلك قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] تخفي في نفسك إن فارقها تزوجتها. اهـ.

وهذا كذب وافتراء على حبيب الله ورسوله وأكمل خلقه وأفضلهم محمد ﷺ، إن القرآن العظيم ينص على العلة في زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش، ويسوق في سورة الأحزاب عندما يقول: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب: ٤ ـ ٥]. وأصل القصة أن الجاهليين كانوا إذا تبنوا شخصًا جعلوه كولد الصلب، فلا يتزوج من تبناه امرأة هذا الولد المتبنى إذا طلقها، وأراد الله أن يبطل هذه القاعدة الجائرة الظالمة؛ لأنها لا حقيقة لها. وكان زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي قد خرجت به أمه سعدى بنت ثعلبة من طيء لتزيره أهلها، فأصابتها خيل من بني القين، فباعوه بسوق حباشة ـ وهو سوق من أسواق العرب ـ وزيد يومئذٍ ابن ثمانية أعوام، وقد اشتراه حكيم بن حزام بن خويلد من الشام، ووهبه لعمته خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ، فاستوهبه منها رسول الله ﷺفوهبته له فأعتقه رسول الله ﷺ وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعًا شديدًا، وبكى عليه كثيرًا حين فقده، فهو يقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل
فـــوالله لا أدري وإنـــي لســـائـــل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل

ثم يقول فيها:

تـذكـرنيـه الشمـس عنـد طلـوعهـا ... وتعـرض ذكـراه إذا غـربهـا أفـل
سأعمل نص العيس في الأرض جاهدًا ... ولا أســأم التطــواف أو تسـأم الإبـل
حيــاتــي أو تــأتــي علــيَّ منيتــي ... فكـلّ امـريء فـانٍ وإن غـره الأمـل

وقد أخبر أبوه بأن زيدًا عند محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بمكة، فقدم هو وأخوه إلى مكة، وجاء إلى بيت رسول الله ﷺ وذلك قبل البعثة النبوية فسألا رسول الله ﷺ أن يعطيهما زيدًا، فقال له رسول الله ﷺ: يا زيد! هذا أبوك وهذا عمك إن شئت فأقم عندي وإن شئت فانطلق معهما، فنظر زيد إلى وجه رسول الله ﷺ مرة ونظر إلى وجه أبيه ووجه عمه مرة أخرى، ثم قال: بل أقيم عندك، ولا أختار عليك أحدًا أبدًا، فأخذه رسول الله ﷺ إلى الملأ من قريش، وقال: يا معشر قريش أشهدكم أن زيدًا ابني يرثني وأرثه.

وكان التبني في الجاهلية ينزل الابن المتبنَّى بمنزلة الابن من الصلب، فجميع ما يحرمه الجاهليون حول الابن من الصلب يحرمونه للابن المتبنَّى، ولما أراد الله تبارك وتعالى إبطال عادة قبيحة من عادات أهل الجاهلية وهي أنهم كانوا إذا تزوج الابن المتبنَّى زوجة ثم طلقها لا يحل للذي تبناه أن يتزوجها فلما أراد الله أن يبطل هذه العادة ولم يكن أحد يتحمل ذلك إلا رسول الله ﷺ أمر الله رسوله ﷺ أن يزوج زينب بنت جحش ابنة عمته من زيد مولاه فرفضت وقالت: لا أتزوج من مولى، ورفض أخوها كذلك أن يتم هذا الزواج فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] فرضيت زينب بنت جحش بأمر الله وأمر رسوله ورضي أخوها بأمر الله وأمر رسوله كذلك. وتزوج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكانت تحس في قلبها بأنه دونها، فكانت تناله أحيانًا بما يكره من القول حيث تقول له: تزوجتك وأنت مولى، فيأتي زيد بن حارثة إلى رسول الله ﷺ ويشكو زينب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، ورسول الله ﷺ يعلم أن ما ألقاه الله في قلب زينب نحو زيد هو تمهيد للفراق بينهما ليتم ما قضاه الله عز وجل من أن يتزوج رسول الله ﷺ من زينب حتى تبطل عادة الجاهلية في تحريم نكاح زوجة الابن المتبنَّى إذا فارقها، فلما قضى زيد منها وطرًا طلقها زيد بن حارثة للعلة التي ذكرها الله عز وجل

حيث قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧ ـ ٤٠].

وقد أخذ المغرضون والخرافيون والحاقدون والمرجفون هذه القصة الجميلة الممتلئة بالحكمة والتشريع والخير للإنسانية ووضع الأمور في نصابها الحقيقي والقضاء على خرافات أهل الجاهلية فدس هؤلاء الحاقدون على رسول الله ﷺ قصة رفع الريح طرف الخباء عن زينب وهي تحت زيد بن حارثة وإعجاب النبي ﷺ بها وإخبار زيد رسول الله ﷺ أنه يريد فراقها ليتزوجها رسول الله ﷺ مادام قد أحبها، إذ تدس هذه الأباطيل أن رسول الله ﷺ لما رأى ساقها وأعجب بها قال: سبحان مقلب القلوب. وأيقنت زينب أن رسول الله ﷺ ما قال هذه الكلمة إلا للدلالة على أنه أحبها ووقعت في قلبه لما رأى ساقها، برأه الله مما قالوا وعصمه مما زعموا، لقد جهل هؤلاء أو تجاهلوا العلة المنصوصة لزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش وأن المقصود منها إبطال خرافات الجاهليين ووضع الأمور في نصابها وأن التبني لا يمكن أن يجعل المتبنى ولدًا من الصلب أو كولد الصلب فإن الإنسان إذا كتب على كيس السكر هذا ملح لا يمكن أن يصير السكر ملحًا بهذه الكتابة ولو كتب على كيس الملح هذا سكر لا يمكن أن يصير الملح سكرًا حلوًا بهذه الكتابة فالعناوين التي لا تطابق الواقع لا قيمة لها ولا تغير من الحقيقة شيئًا.

فلما أراد الله أن يبطل هذه العادة الجاهلية الكاذبة أمر رسوله محمدًا ﷺ أن يزوج زيد بن حارثة مولاه من زينب بنت جحش وقد مهَّد لذلك في مقامات من سورة الأحزاب حيث يقول في مطلعها: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ﴾ [الأحزاب: ٤] وقد لفت الانتباه في هذا المقام حيث أكد هذه الحقيقة إذ يقول: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥ ﴾ [الأحزاب: ٤ ـ ٥] كما أشرت إلى ذلك في الفصل السابق.

وأشار إلى قصة إرغام زينب على التزوج من زيد وما كان بينهما حيث يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦ ـ ٣٧] ومعنى أنعم الله عليه يعني بالإسلام، وأنعمت عليه أي بالحرية، وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ هو من مقالة رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة يوصيه بالصبر على أذى زوجته له، ومخافة الله فيها. وقوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: وتكتم في نفسك ما علمت أنه كائن لا محالة من أن زيدًا يطلق زينب ليتزوجها رسول الله ﷺ للقضاء على عادات أهل الجاهلية. وقوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾، هو ترغيب لرسول الله ﷺ في الإقبال على الزواج من زينب بنت جحش وأن يزيل من خاطره كل ما قد يمر به مما يُخافُ أن يتحدث به الجاهليون بأن محمدًا تزوج زوجة ابنه بعد أن فارقها ابنه.

وقد حرَّف المبطلون الكَلِمَ عن مواضعه وقالوا في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ أي: حب زينب، ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعني من حبها وتخشى الناس في حبها. حاشا لرسول الله ﷺ ولمن دونه من المؤمنين أن يرضى بذلك أو أن يفعله. وقد سقت هذه القصة لأبين كيف استطاع اليهود ومن ينحو نحوهم أن يُدخلوا على قصص الأنبياء والمرسلين الشيء الكثير من الكذب والباطل والافتراء كما افتروا على داود وغيره من الأنبياء وذلك بناءً على مذاهب لهم، فاليهود لا يتورعون عن وصف الله ورسله بكل شر ونقص، ففي الإصحاح الأول من سفر التكوين من التوراة التي حرفوها بأيديهم في الفقرة السادسة والعشرين «٢٦» وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا فالله ﴿لَيْسَ

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الإخلاص]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم: ٦٥]. ثم يزعمون أن الله تعب لمَّا خلق السموات والأرض في ستة أيام فاستراح في اليوم السابع يوم السبت فيقول في الإصحاح الثاني من سفر التكوين في الفقرة الأولى والثانية والثالثة منه: فأكملت السموات والأرض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا فالله لا يتعب، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ولذلك جاء في الرد عليهم قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

عبد القادر بن شيبة الحمد